قافلة الزيت

ربيع الثاني ١٣٩٢ - مايو/يونيه ١٩٧٢

جانب من مدينة الجبيل ، ويبدو الى أقصى اليمين الجبيل البحري ، وهو جزيرة في البحر وصلت مؤخرا بالجبيل بطريق مردومة .

الجبيل

مدينة تاريخية عريقة

مدينة جميلة تتربع على ساحل الخليج العربي ذي المياه الزمردية الرائقة، لها معه قصة عريقة تردّدها كل يوم امواجه الصاخبة حينا، الهادئة احيانا ... تعيش على ماضٍ عريق، لا تنفك ذكراه تثير الحواس وتنعش القلوب، وتشحذ الهمم، تستمد منه ما يمهد لها السبيل نحو غدٍ مشرق، أخذت بوادره تظهر في أرجائها بجلاء: تخطيطاً، وتنسيقاً، وعمراناً ... تلك هي "الجبيل" ميناء الأمس واليوم سابقاً، وبلد الآطام والآثار، الواقفة على عتبة مستقبل زاهر.

« شارع الصفاة » يشق الجبيل من وسطها .

موقع أخاذ

الطريق الى الجبيل مسفلتة ، وهي تخترق سبخات متصلة واسعة تتخللها تلال مغطاة ببقايا أشجار النخيل مما يحمل على الاعتقاد بأنها كانت مأهولة في زمن مضى . وفي الربيع تكتسي الأرض ، بعد أن يجودها الغيث بالكلأ الأخضر ، فتبدو خلابة بجمالها الطبيعي الأخاذ ، وقبل مدينة « الجبيل » بنحو ١٥ كيلومترا يقع « الجبيل البري » ، وهو جبل صغير على يسار الطريق يقع الى الجنوب الشرقي من مدينة الجبيل ، ويرتفع عن سطح البحر ٩٣ مترا . والوافد الى مدينة الجبيل يجد نفسه في مدخل « شارع الصفاة » الذي تحف به الأنوار والأشجار التي غرست حديثا ، وهو يخترق الجبيل من وسطها حتى يفضي الى مبنى الجمارك والميناء التي تربض فيها « السنابيك » و « الجلابيت » وغيرها من القوارب .

وقد استرعى انتباهنا ، ونحن أمام مبنى الجمرك ، جبل صغير مستطيل غارق في البحر الا من جادة عريضة ذات حواجز من الاسمنت تربط الجبل بالمدينة . هذا الجبل يعرف « بالجبيل البحري » . وقد كان هذا الجبيل الصخري قبل ان تنشىء البلدية تلك الجادة ، ينفصل عن المدينة في أوقات المد مما يتعذر معه الوصول اليه ، وعندما ينحسر الماء وقت الجزر تشاهد أهالي الجبيل يذهبون اليه زرافات ووحدانا لينعموا بأجمل ما حبت الطبيعة ذلك الجبل من مناظر أخاذة . فهو يرتفع عن سطح البحر نحو ١٢ مترا ، ويبلغ طوله نحو ٥٠٠ متر وعرضه نحو ١٠٠ متر . وتقع مدينة الجبيل على خط طول ٤٩ درجة و ٤٠ دقيقة شرقا وعلى خط عرض ٢٧ درجة ودقيقة واحدة شمالا . وهي تمتاز بمناخها المعتدل صيفا وشتاء ، خلافا لمعظم مدن الخليج العربي .

أضواء على تسمية الجبيل وتاريخها

حدثنا سعادة أمير الجبيل «احمد عبد الرحمن المسفر» ، ونحن نرتشف القهوة العربية في مجلسه ، أن الجبيل مدينة عريقة في التاريخ ، ولها مكانة مرموقة في المنطقة الشرقية ، فهي تمونها بالأسماك على اختلاف أنواعها ، وقد طبقت شهرتها الآفاق ، قبل اكتشاف الزيت ، لما كان لها من مركز تجاري عظيم ، بوصفها الميناء الرئيسي لمنطقة الأحساء ونجد أيضا ، فازدهرت حينذاك وانتعشت ، ونعمت بمكانة تجارية نشطة وثراء واسع .

أما عن تسميتها فيعتقد بعض سكان مدينة الجبيل ان الاسم الذي تعرف به الآن هو مستحدث نسبيا ، ولم يلتصق بها الا منذ نصف قرن تقريبا ، وانها كانت تعرف قبل التسمية الجديدة باسم « عينين » ، وهو الاسم الذي لا تزال ترددة اواسط نجد وشمالها . ويذهب البعض الآخر في تعليل اسم « الجبيل » الى انها اكتسبته من موقعها بين « الجبيل البري » و « الجبيل البحري » . وينقسم الفريق الأول على نفسه ، عند تعليل اسم « عينين » ، فمنهم من يقول ان سبب التسمية يعود الى وجود عينين جاريتين تبعدان نحو اربعة كيلومترات الى

الجنوب الغربي من الجبيل ، ومنهم من يقول ان التسمية جاءت من اسم قبيلة « آل بوعينين » التي نزحت من « الوكْرة » في دولة قطر الشقيقة واستوطنت هذا المكان في السابع والعشرين من شهر رمضان المبارك من سنة ١٣٢٧هـ (١٩١٠ م)، لما رأته فيه من توفر المياه العذبة والمراعي الخضر اليانعة . ومن هذه القبيلة تتفرع فخوذ كثيرة ، منها آل خاطر ، وآل راشد ، وآل علي ، وآل عبد الله ، وآل عيد ، وآل بوحمود ، وغيرهم ، وهم جميعا يمتون بصلة نسب قوية الى قبيلة بني خالد. ويطلق على احدى العينين اللتين انبطهما آل بوعينين « عين آل عبد الله » وعلى الأخرى « عين آل عيد » .

ومن هذه الروايات ما يرجح انه كانت هناك قريتان ، احداهما باسم « الجبيل » على سيف البحر ، والأخرى باسم « عينين » في المرتفعات الجنوبية الغربية من الجبيل الحالية . وتدل الشواهد التاريخية على أن لكل منهما جذورا ضاربة في أعماق التاريخ ، وان الجبيل أقدم بكثير من « عينين » .

أما الجبيل فيعتقد كثير من علماء التاريخ والآثار انها احدى المدن التي انشأها الفينيقيون على الساحل الغربي من الخليج قبل نزوحهم الى سواحل سوريا ولبنان في الألف الثالث قبل الميلاد . والفينيقيون الذين ينحدرون من الكنعانيين نزحوا من اواسط الجزيرة العربية كغيرهم من الأقوام السامية ، واستقروا على سواحل الخليج عقب موجة القحط والجفاف التي حلت بالجزيرة في العصور الجيولوجية السحيقة . وقد عرف عن الفينيقيين حب المغامرة واقتحام الأهوال ، فمارسوا الملاحة واتقنوها واصبحوا من سادة البحار .

ويرى بعض المؤرخين ان الفينيقيين أقاموا في بادىء الأمر في جزيرتي « تيروس » التي هي « تاروت » الان و « آراد » احدى جزر البحرين والتي تسمى الآن « عراد » ، ومن ثم انتشروا على ساحل الخليج وانشأوا مدنا عامرة . ولم يقتصر نشاطهم التجاري على مياه الخليج ، بل امتد نفوذهم الى البحر المتوسط وأقاموا لهم على سواحله وفي جزره مدنا ومستوطنات عديدة تشبه في اسمائها المدن التي انشأوها على سواحل الخليج العربي لتذكرهم بموطنهم الأول . حتى انهم ، بعد نزوحهم الى الشمال ، اتخذوا من عسيب النخل شعارا لهم ورمزا لدولتهم التي اتسعت رقعتها ، فصوروه على مسكوكاتهم وأوانيهم ، وقد عثر على كثير من هذه النقود

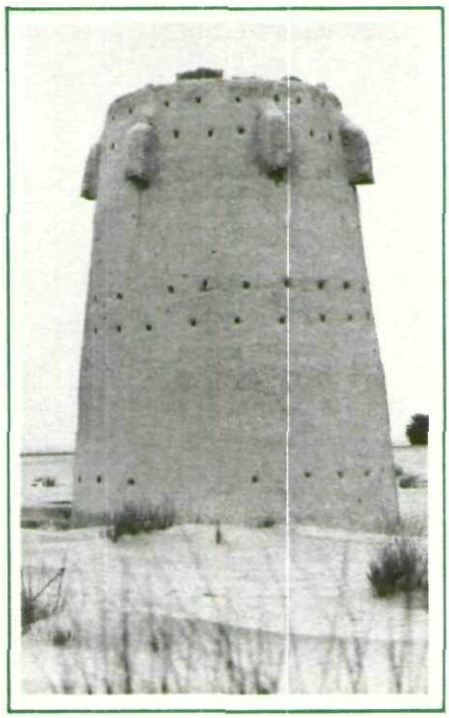

« برج الطوية » القائم على رأس طريق «الكنهري» ، أشيد قبل نحو نصف قرن وما زال يتحدى عاديات الزمان .

في مدنهم ومستعمراتهم . ومن هنا نجد ان الجبيل في المملكة العربية السعودية تقابلها جبيل على الساحل اللبناني شمالي بيروت ، وكذلك « صور » على ساحل عُمان تقابلها مدينة « صور » جنوبي صيدا بلبنان ، وجزيرة « أراد » أو « عراد » في البحرين تقابلها جزيرة « ارواد » في البحر المتوسط التي تبعد ثلاثة كيلومترات عن شاطىء طرطوس بسوريا . ولا بد ان تكون هناك مدن أخرى اسسها الفينيقيون على ساحل الخليج ولها مثيلاتها على سواحل البحر الأبيض المتوسط .

فاذا كان تشابه الأسماء لا يقف دليلا كافيا على فينيقية « الجبيل » من ناحية موضوعية ، فلا يزال مجال البحث والتنقيب واسعا أمام المؤرخين وعلماء الآثار لاثبات هذا الافتراض أو دحضه . ومع ذلك لا أجد مناصا من ايراد بعض التحقيقات التي توصل اليها بعض المؤرخين وعلماء الآثار في هذا الصدد . فالمؤرخ الانجليزي « جورج رولنسون George Rawlinson » في كتابه « التاريخ القديم » يقول معتمدا على ما كتبه كل من « هيرودوت » و « سترابو » ان الفينيقيين نشأوا على سواحل الخليج ، وهم من الشعوب الشرقية السامية ، ومن رجال البحار الأولين ، وكانت اسفارهم في البداية محصورة بين الهند والشام ومصر ، فوصلوا الى « قادش » وبلاد الغال ، وأصبحوا في تلك الأيام الصلة التجارية الوحيدة بين الشرق والغرب الأقصى ومما قاله « رولنسون » انهم كانوا يسافرون من ارواد و « بيبلوس » (١) برا الى الخليج فيبحرون منه الى الهند وسيلان ، ثم يعودون حاملين معهم الذهب من أوفير ، كأنهم بعد نزوحهم غربا الى سوريا كانوا يعودون الى بلاد هي بلادهم .

ومما يؤيد ما ذهب اليه « رولنسون » انه جاء الى البحرين سنة ١٨٨٩ م باحث انجليزي يدعى « ثيودور بنت — Theodore Bent » وأمعن في البحث والتنقيب في المدافن الموجودة في احدى جزر البحرين ، فعثر على آثار صناعية بعث بشيء منها الى المتحف البريطاني للدراسة والتحقيق ، وجاء في التقرير عنها انها فينيقية الأصل . والبحرين اسم كان يطلق قديما على جميع المنطقة الساحلية الممتدة من البصرة الى عُمان .

وفي أثناء عودة « الاسكندر » المقدوني من حملته المشهورة على الشرق عام (٣٢٦ ق.م.) أمر قائد اسطوله « نيارکوس » (٢) بأن يبحر من مصب السند الى مصب الرافدين لاستطلاع الخليج العربي ، الشريان الذهبي لتجارة الشرق . فكان ان تجول فيه واستطلعه بالتفصيل وتعرف بالدقة الى شواطئه العربية . وكتب هذا القائد يقول انه زار مدينة « فينيقية » على الساحل الغربي من الخليج ثم جزيرة تدعى « نيرين » ، هي على ما يظهر « دارين » ، المدينة التاريخية المشهورة على طرف جزيرة تاروت الجنوبي . وليس ببعيد ان تكون تلك المدينة التي زارها « نيارکوس » هي « الجبيل » .

ويشير « ياقوت الحموي » في معجمه الى قرية تسمى « جَبَلَة » فقال « .. انها قرية لبني عامر بن عبد القيس بالبحرين ، ثم اوردها ثانية بصيغة التصغير « الجُبَيْلَة » ، وقال عنها انها بلد هو قصبة قرى بني عامر بن الحارث ابن أنمار بن عمرو بن وديعة بن لكيز العبقسيين بالبحر . » ومعروف ان قبيلة « بني عبد القيس » استقرت في البحرين وانتشرت على سيف البحر من الكويت حتى العُقَير ، وهي من أقدم القبائل العربية التي ذكرها المؤرخ « بطليموس » في جغرافيته باسم « Abucai » كما ذكر المؤرخ « بلينيوس — Pliny » الذي عاش في القرن الاول الميلادي القبائل والشعوب القديمة التي استوطنت هذه المنطقة ، ومنها قبيلة سماها « Thaemae » ، أي « بني تميم » . وقد

(١) الجبيل في لبنان .

(٢) راجع مقال « الخليج العربي مستودع لثروات هائلة » في جمادى الأولى ١٣٩١ من قافلة الزيت .

نزلت هذه القبيلة بجوار بني عبد القيس في المرتفعات الشمالية المحيطة بوادي المياه المشهور ، ومن مساكنهم « كَاظِمَة » و « ثاج » و « الحنّاءة » و « عَتيد » و « الطُريفة » اي ما يُعرف بالسّتار . ويمتاز وادي المياه الذي يحتضن بلدة الجبيل بخضرة مراعيه ووفرة مياهه ، وقد تغنى به الشعراء قديما ، فهذا الراعي يقول :

رَدّوا الجمال وقالوا ان موعدكم
وادي المياه وأحْسَاءٌ به بُرُدُ
واستقبلت سَرْبهم هيفٌ يمانية
هاجتْ تراعي وَحَادٍ خلفهم غَرِدُ

أما ابن الدمينة فيقول معرضا ببنت عم له :

ألا يا حمى وادي المياه قتلتني ،
أباحك لي قبل الممات مبيحُ
رأيتك غض النبت مرتطب الثرى
يحوطك شُجّاع عليك شحيح
كأن مَدُوف الزعفران بجنبه
دم من ظباء الواديين ذبيح
ولي كبد مقروحة من يبيعني
بها كبدا ليست بذات قروحِ ؟
أبى الناس ، ويح الناس ! لا يشترونها
ومن يشتري ذا علّة بصحيحِ ؟

ومع ما في تلك الأبيات من اقواء ، الا انها تعبر أجمل تعبير عن تشكي الشاعر والألم المضض الذي يعانيه .

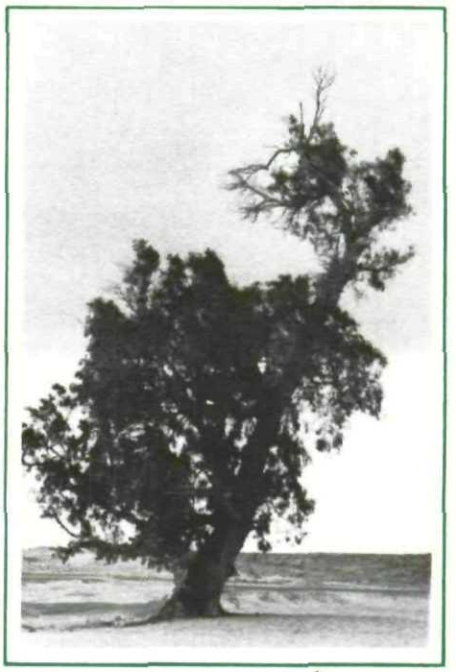

عندما تتراءى «أثلة السهول» الفارعة للبحارة ، وهم في عرض البحر ، تعلو وجوههم امارات البشر دلالة على انهم أصبحوا على مقربة من شاطيء الأمان .

ونعود الى « عينين » لنجد انها تعود في تاريخها الى صدر الاسلام ، وربما قبل ذلك . فقد ورد اسمها في معظم المعاجم الجغرافية القديمة وعلى ألسنة الشعراء . «فالبكري» المتوفى سنة ٤٨٧هـ يقول في معجمه : « عينان » : على لفظ تثنية عين ، قرية بالبحرين كثيرة النخيل ، واليها ينسب خليد عَيْنَيْن الشاعر . و« ياقوت » يقول في معجمه : عينان ، تثنية العين ، وفي شعر الفرزدق (٣) :

ونحن منعنا يوم عينين منقَراً
ولم نَنْبُ في يومي جَدُود عن الأسَلْ

وقال ابو سعيد : « عينين » بالبحرين ايضا ماء من مياه العرب ، وقال غيره : هو في ديار عبد القيس وهي بالبحرين ، واليه ينسب خليد عينين الشاعر . وقال أبو عبيدة : « عينين » هو تثنية عين ، ولكن بعضهم يتلفظ به على هذه الصيغة في جميع أحواله ، وقال عن يوم عينين : أما يوم عينين بالبحرين ، فكانت بنو منقر بن عبيد الله بن الحارث ، والحارث هو مُقاعس بن عمرو بن كعب بن سعد ، خرجوا ممتارين ، فعرضت لهم بنو عبد القيس فاستعانوا ببني مجاشع فحموهم حتى استنقذوهم .

وقال الحفصي : عينين بالبحرين ، وانشد :

يتبعن عودا قاليا لعينين
راج وقد مل ثواء البحرين
ينسل منهن ، اذا تدانين
مثل انسلال الدمع من جفن العين

وقال الراعي :

يحث بهم الحاديات كأنما
يحثان جبارا بعينين مُكْرَعا

وقال ثعلب :

عينين مكان بشق البحرين به نخل .

مما تقدم نرى ان « عينين » ليست حديثة عهد وانما كانت تتمتع بأهمية خاصة قبل الاسلام كاحدى قرى بني عبد القيس المشهورة وقد تأثرت هذه البلدة بالوقائع والأحداث التاريخية التي ألمت بهذه المنطقة . فخضعت قبل الاسلام للفرس فأذاقوها من العسف والجور ألوانا ، ولم تتنفس الصعداء الا مع انبثاق نور الاسلام حينما وجه النبي ، صلى الله عليه وسلم ، اليها في العام السادس للهجرة « العلاء بن الحضرمي » حليف بني عبد شمس بكتاب الى المنذر بن ساوى (٤) والي البحرين من قبل الفرس ، هذا نصه : « بسم الله الرحمن الرحيم من محمد ، رسول الله ، الى المنذر بن ساوى ، فاني أحمد الله الذي لا اله الا هو . أما بعد ، فان من صلى صلاتنا ونسك نسكنا واستقبل قبلتنا وأكل ذبيحتنا فذاك المسلم ، له ما لنا وعليه ما علينا ، له ذمة الله ورسوله من أحب ذلك من المجوس فهو آمن ، ومن أبى فعليه الجزية » . فأسلم « المنذر بن ساوى » وأسلم جميع العرب بالبحرين . وكتب المنذر بن ساوى كتابا الى النبي ، صلى الله عليه وسلم ، قال فيه : « أما بعد يا رسول الله فاني قرأت كتابك على أهل هجر ، فمنهم من أحب الاسلام ودخل فيه ، ومنهم من كرهه ، وبأرضي مجوس ويهود ونصارى فأحدث لي يا رسول الله في ذلك أمرك » . فكان جواب الرسول ان يترك هؤلاء على دينهم على أن يدفعوا الجزية .

ازدهرت الجبيل ابان العصور الاسلامية المتعاقبة كمرسى تجاري على الخليج العربي الذي اصبحت تحوطه دول اسلامية وبلغت فيه التجارة اوج ازدهارها بفضل استتباب الأمن وتوفر الحماية ، فغدا الخليج همزة الوصل بين الشرق والغرب . ثم جاء البرتغاليون في مطلع القرن السادس عشر وبسطوا نفوذهم على الخليج العربي وسيطروا على هذا الممر الحيوي واحتكروا تجارة اللؤلؤ ، وأسسوا لهم مراكز دفاعية في كثير من مدنه وموانئه . ولم يلبث ان وفد الاتراك الى هذه المنطقة حوالي منتصف القرن السادس عشر وتغلبوا على البرتغاليين وأجلوهم عنها . وعاشت هذه المنطقة ردحا من الزمن نهبا للفوضى ومسرحا للمنازعات الى أن استولى جلالة الملك الراحل عبد العزيز آل سعود على الاحساء وطرد الحامية التركية عام ١٩١٣ م (١٣٣١ هـ) وبذلك ساد الأمن والرخاء والاستقرار .

نافذة الأحساء ونجد

بلغت مدينة الجبيل من الازدهار والرخاء ما لم تبلغه مدينة بحرية في المنطقة الشرقية قبل اكتشاف البترول . فقد كانت الميناء الرئيسية لنجد والمنطقة الشرقية . ويحدثنا الشيخ « علي ابن عبد الله بن راشد » مدير الجمرك ، عما وصلته جبيل من سعة العيش والغنى ، فقال : مضى علي وأنا أعمل في هذه الميناء ما ينوف على ثلاثين سنه ، كانت تتناقل فيها الألسنة اسم الجبيل (عينين) على صفحات اليم وعبر المفاوز والفلوات . فقد كانت هذه الميناء تعج بالنشاط والحركة . تؤمها القوارب الشراعية من الهند والبحرين والكويت والبصرة وايران محملة

(٣) هذا البيت للبعيث المجاشعي ونسبه ياقوت الى الفرزدق خطأ .

(٤) البلاذري والطبري وابن الأثير .

« فرقة الكشافة » من طلاب مدرسة عبد العزيز آل سعود الابتدائية بالجبيل ، أثناء الاستعراض اليومي .

عبد الله بن شبر متخصص في صنع « الكوفة » التي تستخدم لصيد الربيان .

أسماك الجبيل تباع بالجملة ، ويقوم الموظف المختص بتسجيل كمية الأسماك المباعة

بالبضائع من أقمشة ومواد غذائية ومحروقات ، فتلقي مراسيها في فرضة الجبيل لتفرغ أحمالها ، ومن ثم تتولى سفن الصحراء نقلها الى قلب الجزيرة العربية ، سالكة درب القوافل التجاري القديم الذي يطلق عليه حتى الآن « درب الكنْهري » ، وهو يبدأ من الجبيل ويخترق الدهناء مارا « بالهيدروك » ، « فالحناءة » ، « فالوثنان » ، « فالكنهري » ، « فالعُوينة » ، « فَمَعْقَلا » (الشَمْلول) « فَرَمَاح » فالرياض . وسمي هذا الطريق كذلك نسبة الى « كِنْهِر » . ويرى ابن بليهد (٥) ان هذا الاسم محرف عن « كنهل » وابدلت لامه راءا وهو الذي تضاف اليه « عوينة » فيقال لها « عوينة كنهر » . فالاصفهاني وصفه بأنه محاذ للستار ، وهي منازل بني تميم . ويقول ياقوت في معجمه : « ان كنهل علم مرتجل لاسم ماء لبني تميم » . أما البكري فقال . كنهل ماء لبني عون بن عاصم بن ثعلبة بن يربوع ، جاورهم عليه قيس والهرماس ابنا هجيمة ، من غسان ، في جماعة من قومهما ، ورئيس بني عوف يومئذ ديسق بن عوف بن عاصم ، فأغار على ابني هجيمة قوم من بني يربوع ، رئيسهم عتيبة بن الحارث بن شهاب ، فاتبعهم ابنا هجيمة في قومهما فقتلهما عتيبة ، فهو يوم كنهل . وقال « الفرزدق » في يوم كنهل وكان في أيام زياد بن أبيه في الاسلام :

سرى من اصول النخل حتى اذا انتهى
بكنهـل ادى رمـحـه شر مغنم
لعمري وما عمري علـي بهـيـن
لبئس الذي أجرى اليه ابن ضمضم

وقال جرير :

طوى البين أسبابَ الوصال وحاولت
بكنهلَ اسبابُ الهوى ان تَجَدّمَا
كأن جبال الحيّ سُرْبِلْن يـانعـا
من الوارد البطحاء من نخلِ مَلْهَمَا

يبدو من ذلك ان طريق الكنهري كان مطروقا منذ القدم كطريق للقوافل يربط بين الخليج العربي وأواسط الجزيرة . وقد زادت أهمية هذا الطريق في مطلع القرن العشرين عندما غدت مدينة الجبيل النافذة التجارية على الخليج تمون المنطقة الشرقية وقلب الجزيرة من شماله الى جنوبه بكل ما تحتاجه من سلع ومواد غذائية . ولم يلبث هذا الطريق الحيوي ان أخذ يفقد اهميته تدريجيا في الخمسينات الأوائل من هذا القرن عندما تم انشاء السكة الحديد والطريق المعبد اللتين تربطان الدمام بالرياض .

أما الشيخ « ابراهيم بن علي الخلف » ، رئيس بلدية الجبيل ، فتعود به الذاكرة الى تلك الايام الذهبية التي مرت بالجبيل عندما كانت تمور بالحركة ليل نهار ، الناس في هرج ومرج ، الأبل تملأ الصيهد الفسيح ، الميناء مكتظة بالغادي والرائح .

الجبيل تستقبل الجيل الأول من الجيولوجيين

بعد اربعة أشهر من تاريخ ابرام اتفاقية الامتياز في جدة بين حكومة المملكة العربية السعودية وشركة ستاندرد اوف كاليفورنيا للزيت ، فتحت مدينة الجبيل عينيها مع الخيوط الأولى من فجر الثالث والعشرين من شهر سبتمبر عام ١٩٣٣م على قارب شراعي صغير يتهادى على صفحة المياه الزمردية الهادئة لم يلبث ان رسا في مينائها . وكم كانت دهشة الأهلين عندما نزل منه رجلان غريبان في زي عربي هما الجيولوجيان الأمريكيان « ر.ب. ميللر » و « س. ب. هنري » ، وانضم اليهما ثالث هو « كارل س. تويتشل » الذي انتدب خصيصا من جدة لمساعدة الجيولوجيين على بدء مهمتهما في هذا الجزء من المملكة ، فقطع الجزيرة من جدة الى الجبيل بسيارتين لاستخدامهما في أعمال التنقيب . كان ذلك اليوم في تاريخ الجبيل يوما مشهودا ، وهي تستقبل الطليعة الاولى من الجيولوجيين الذين اتخذوا منها قاعدة لنشاطهم . ونزل الجيولوجيون في « قصر برزان » الذي لم يبق منه الآن سوى اطلال بعد اعادة تخطيط المدينة . وهو القصر الذي نزل فيه جلالة المغفور له الملك عبد العزيز قبل ذلك اثناء زيارته للجبيل . ومكث فريق الجيولوجيين في الجبيل قرابة ثلاث سنوات قبل اتخاذ الظهران مقرا رئيسيا للشركة . وشهدت الجبيل آنذاك أول طائرة من نوع « فيرتشايلد » تهبط على مدرج رملي لا يزال يستعمل حتى الآن لطائرات «أرامكو » ، وقد استخدمت تلك الطائرة للقيام بأعمال المراقبة والتصوير الجوي . وبذلك فقد احتضنت الجبيل الرواد الأوائل الذين أسهموا في تدفق ينبوع الذهب الأسود الذي كان له الفضل في التطور الشامل والتقدم السريع في المملكة .

مهنة تتلاشى

كانت الجبيل من المراكز الرئيسية على الخليج العربي لصيد اللؤلؤ . فقد عرف عن

صيانة القوارب من الأعمال الضرورية التي يقوم بها العاملون عليها .

أهلها منذ فجر التاريخ ركوبهم البحر والتوغل فيه واقتحام اهواله غير عابئين بما يعترضهم من مخاطر وصعاب ، حتى أصبح يطلق عليهم « سادة الشراع » . ومهنة الغوص لاستخراج اللؤلؤ من المهن التي مارسها أهل الجبيل كمصدر رزق لهم . فعندما يحين موسم الغوص الذي يمتد عادة من شهر مايو الى شهر أكتوبر يتأهب البحارة والمشتغلون بالغوص لهذه المناسبة التي تعد من اكثر المناسبات اثارة واشدها خطورة ، ويعدون لها كل ما يحتاجون اليه وهم في عرض البحر ، كيف لا وأن بريق اللآلىء القابع في قعر البحر يداعب مخيلاتهم ويستحوذ عليهم ، فقد يعود واحد منهم بثروة ضخمة وآخر بخفي حنين ، وثالث قد لا يعود . وينطلق البحارة في سنابيكهم وجلابيتهم الشراعية الى مغاصات اللؤلؤ تودعهم الاهازيج والأغاني والنظرات الحانية على الشاطىء داعية لهم بالتوفيق والعودة سالمين .

ومما هو جدير بالذكر ان الغواصين خلال موسم الغوص يشربون من ينابيع المياه العذبة المنتشرة في قعر الخليج والتي تعتبر من عجائب الطبيعة . وهذه الينابيع يعرفها الغواصون كل المعرفة ، سيما وان محار اللؤلؤ يتكاثر حولها .

(٥) صحيح الأخبار عما في بلاد العرب من الآثار .

في غلس الليل تعود قوارب صيد الأسماك الى فرضة الجبيل لتفرغ أحمالها .

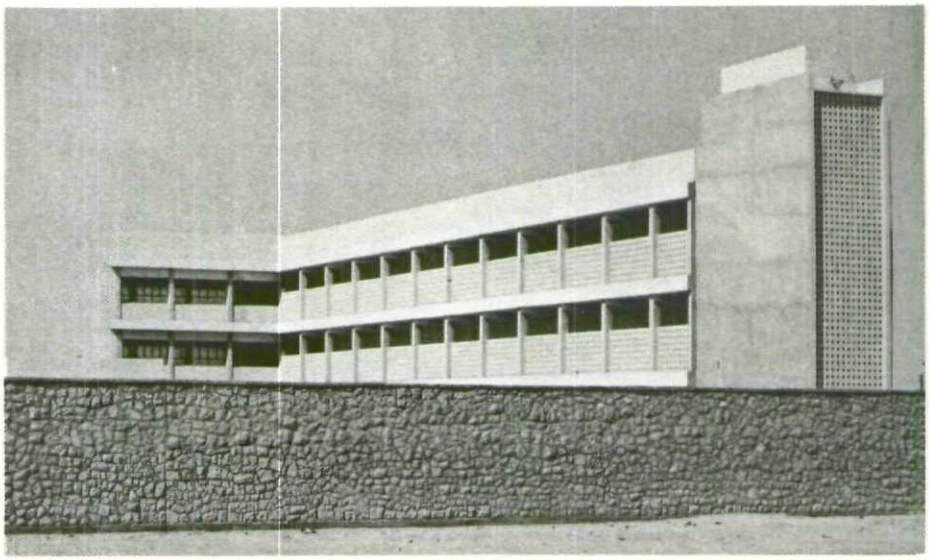

يضم هذا المبنى المدرسة الابتدائية والمتوسطة والمعهد الخاص بالبنات في مدينة الجبيل .

ومن أشهر الينابيع العذبة البحرية القريبة من الجبيل « غُمسَة » ، وهي تقع على بعد نحو نصف كيلومتر شرقي البئر رقم (٥) في حقل الزيت « بري » المغمور الذي يبعد عن مدينة الجبيل نحو ١٥ كيلومترا الى الشمال الشرقي . ويعرف الغواصون هذه العين برضم ملساء سود حولها . وعندما يريدون الماء يشد أحد الغواصين قربة الى وسطه بحبل متين ويغوص بها حتى يصل الى فتحة العين الفوارة فيجعل فوهة القربة فوقها حتى تمتلىء ، وقد يتناوب أكثر من غواص على ملئها ومن ثم الصعود بها الى السطح . ويتراوح عمق ماء البحر الذي يعلو عين غمسه حوالي تسعة أمتار .

وينتهي موسم الغوص فيتهيأون الى « القفال » اي العودة الى شاطىء الجبيل حاملين معهم « القماش » اي اللؤلؤ النفيس ، او يعودون خفافا يمنون النفس بحظ أوفر في الموسم الذي يليه .

وكثيرة هي القصص المؤلمة التي يرددها الجبيليون في سبيل الحصول على لؤلؤة تزين جيد حسناء ، فهذه امرأة ترثي ولدها الذي غرق في البحر بشعر نبطي (٦) لا يقل في اثارته للاشجان والدموع عما قالته الخنساء في اخيها صخر :

يا أبو سْعَيّد عزّ من ضَاعت ارْيَاهْ
قلبي حزين ودَمع عيني يهلّ
على وليف سَمّتَ الحال فَرْقَاه
الخَيّر اللي بالقَرَابَة يهلّي
يُذكر غرَق وَسطَ ازْرق الموج دَرْباه
يُذْكر كَلاه الحوت واكبر غلّي
ليتني تقَاسَمْت الغرابيل وايّاه
نِصيفةٍ حقّه ونصيفةٍ لِي
ليته بدار الهند وسيلان مَرْباه
ارجيه ياتيني ولو هو مُقِلّ

وقدّر ما كان يستخرجه الجبيليون من اللؤلؤ بحوالي مليون ريال سنويا ، وكان يخرج الى الغوص في مواسم الصيد ما يربو على مائتي قارب شراعي . أما اليوم وبعد اكتشاف الزيت فقد اضمحلت مهنة الغوص وهي الآن في طريقها الى الاندثار بعد أن انصرف ابناء الجبيل عن ممارستها وانخرطوا في أعمال صناعة الزيت المتشعبة. كما كان لظهور اللؤلؤ الاصطناعي في اليابان دور كبير في تدهور صناعة استخراج اللؤلؤ الطبيعي . ولا تجد الآن في الجبيل من يعنى بهذه المهنة اللهم الا من لا يزال بريق اللؤلؤ يستهويه فيخرج في قارب أو قاربين الى مغاص يتواجد فيه المحار .

صِناعة صَيْد الأسماك

تمثل الثروة السمكية عنصرا رئيسيا في دخل سكان مدينة الجبيل ، ولذا فان الكثيرين من ابنائها يشتغلون في مهنة صيد الأسماك التي تدر عليهم ربحا وفيرا ، وفي الصناعات المساعدة لها ، وذلك نظرا لأن الزراعة في الجبيل محدودة لا تكاد تفي بمتطلبات سكانها من التمور والخضراوات .

ويقدر عدد القوارب المستخدمة في صيد الأسماك بحوالي ١٣٠ قاربا تتراوح حمولة الواحد منها بين ١٥ و ٢٠ طنا . هذا بالاضافة الى ما يقرب من ٣٠ قاربا صغيرا بين شراعي وآلي لا تتوغل كثيرا في البحر وتعود الى ميناء الجبيل كل يوم . أما القوارب الضخمة التي تعمل بالديزل فتقلع من فرضة الميناء مع الفجر بعد ان تتزود بالوقود وتملأ براداتها « ثلاجاتها » بالثلج اللازم لحفظ الأسماك ، خاصة وان هذه القوارب تتعقب أماكن تجمع الأسماك في المياه العميقة.

وتستغرق رحلتها بين ثلاثة وخمسة أيام تعود بعدها الى ميناء الجبيل مثقلة بما لذ وطاب من انواع الأسماك . وتختلف انواع القوارب التي يستخدمها الجبيليون في الصيد ، فمنها « السنبوك » الذي يعرف بمقدمته العالية المائلة وهو المفضل لديهم ، ثم « الجلبوت » بمقدمته المنخفضة العمودية ، وهو محرف عن « Jolly Boat » في الانجليزية اي « قارب للنزهة » . والى جانب السنابيك والجلابيت يستخدم البحارة « لنشات » صغيرة كالهوري والقلّص ، تعبأ بالأسماك وتسحبها القوارب الكبيرة خلفها . ويحدثنا الشيخ سليمان بن حمد الخنيني عن الثروة السمكية فيقول : يبلغ متوسط محصول السمك عندنا حوالي خمسة أطنان يوميا تزيد او تنقص تبعا

(٦) أثبتها الأديب عبد الرحمن عبد الكريم العبيد في كتابه عن قبيلة العوازم .

لعدد القوارب المستخدمة في الصيد . ويجري تصريف هذه الكميات الكبيرة من السمك في مدن المنطقة الشرقية كالدمام والقطيف والخبر والظهران وبقيق والأحساء . وقسم آخر ينقل الى الرياض والكويت بسيارات كبيرة مزودة بثلاجات خاصة . فتجد على باب ميناء الجمرك بعد العشاء السيارات الكبيرة تنتظر الأسماك ، كما ترى عددا كبيرا من العربات « القَوَارى » رابضة أمام مبنى الجمارك تفرغ فيها الأسماك لتباع بدون وزن ، وهي طريقة في البيع يطلق عليها السماكون « بيع الجزْف » ، وتأخذ السيارات نصيبها من الأسماك وتسري بها ليلا الى اسواق الاستهلاك . ويبلغ عدد السيارات التي تشحن السمك من الجبيل ما يقرب من ١٢ سيارة كل ليلة .

وتختلف انواع الأسماك التي يجري صيدها تبعا لفصول السنة . ففي الشتاء والربيع يكثر الكَنْعَد والسكْن والقدّ والجباب والحفّ والشقّرة والعنْدق والشعْري والسبيتي والهامور . وفي الصيف والخريف يتكاثر الشعُوم والعَراضي والصافي والقِرْقفّان والحاقول والخَضَرة والسبيطي والبَدْح . ويفضل الجبيليون سمك الصافي والخضرة من بين تلك الأسماك المتنوعة .

كما يصطاد السماكون الناعوظ وهو صغير الجرجور « القرش » الذي يعتبر من اشرس اسماك الخليج واشدها فتكا . وينظف الناعوظ ، ثم يملح ويجفف ليباع بعد ذلك في الجبيل وفي مدن المنطقة الشرقية وقراها ، ويصدر قسم كبير منه الى ساحل عمان . والناعوظ ، ذو طعم لذيذ ويحوى — كما يزعم البعض — على الفيتامينات المنشطة . كما يستخلص من كبده زيت يستعمل في طلاء القوارب منعا لتسوس الخشب وتآكله . أما ذيله فيسحق بعد تجفيفه ليصنع منه كحل الأثمد .

هذا وتصاد كميات كبيرة من الأسماك الصغيرة « العوم » مع الربيان والأسماك الكبيرة وتجفف لتعطى طعاما دسما للأبقار يساعد على زيادة انتاجها من الحليب .

وتقصد قوارب صيد الأسماك الجزر القريبة من الجبيل كجزيرة ابو علي ومسَلّمِيَة وجنّة وجَنَا وكَران وكرّين وجُريد والعربية . كما تقصد القوارب أماكن معينة يكثر فيها تجمع الأسماك ، منها أم الجمال ، والبُشَيتات ، وأبو سعفة ، والسييم ، ووادي حمير ، وحريقيص وحُرقوص ، وقطْع منيفة ، والضايعات ، والصّريّع ، والنيوَه ، وشْراعوه ، وشِقّتَه وغيرها .

« الجبيل البحري » يجتذب الزوار من جميع أنحاء المملكة ، وها هم طلاب « معهد الدراسات التكميلية » بالرياض يقضون بعض الوقت في ربوع الجبيل .

وبالاضافة الى الأسماك يصيد « سماميك » (٧) الجبيل مقادير كبيرة من الربيان (الجمبري) الذي يتكاثر في فصلي الصيف والخريف ، على عمق يتراوح بين ثلاثة أمتار وستة أمتار في مناطق منها الرّيافَة ، وحسينة ، والباطنة وأم صفيحه ومَشْغله وعنزى وتَناقيب ، وفي المنطقة ما بين مَنيفة والسفّانية . وتقل الربيان في فصل الشتاء حيث تتواجد تحت مياه يصل عمقها الى نحو ١٢ مترا .

ولصيد الربيان يستعمل الصيادون «الكوفة» التي تبلغ سعتها نحو طن . وهي بمثابة شبكة كبيرة مزدوجة تحاك من خيوط النايلون المتينة . وتستورد الشباك التي تصنع منها الأكْواف من اليابان على حد قول السيد عبد الله بن شبّر ، وهو الشخص الوحيد في الجبيل الذي يقوم بصنعها فهو يقوم بتفصيل الكوفة وحياكتها ثم يثبت على حواشيها « الدّوَاسي » ومفردها « داسة » وهو حبل متين يجمع اطراف الشبكة . كما يقوم ابن شبر بعد ذلك بربط سلسلة من الحديد فوق الداسة تساعد الكوفة على الرسوب الى قعر البحر . وللكوفة باب خشبي ثقيل مطعم بقضبان حديدية ، ذو مصراعين يبلغ طول الواحد منهما مترا ونصف المتر وعرضه نحو المتر . وتستغرق الكوفة من وقت ابن شبّر قرابة يومين ليبيعها بعد ذلك « للسماميك » بمبلغ يتراوح بين ٤٠٠ و ٥٠٠ ريال .

فاذا ما وصل القارب الى المنطقة التي يكثر فيها الربيان عمد الصيادون الى ادلاء «الأكواف» الى قعر البحر ، ثم يسحبها القارب فيجرف باب الكوفة الربيان المدفونة الى داخلها . وعندما تمتلىء يسحبونها الى سطح القارب لتفريغها في الثلاجات ليعاودوا الكرة ثانية . وجدير بالذكر أن الصيادين لا يبيعون الربيان طازجا الا في الحالات النادرة ، وانما يسلقونها ويضيفون الملح اليها في براميل كبيرة توجد على شاطىء البحر ، ثم يجففونها لتصديرها الى الأحساء والرياض .

ولصيد الأسماك تستعمل « القَراقِير » و « الغزول » و « المسَاكِر » . أما القرقور ويسمى الكبير منه « دبّوي » وجمعها « دوابي » فهو عبارة عن صندوق مشبّك مقبب مصنوع من الأسلاك يتراوح حجم الكبير منه بين خمسة وعشرة أمتار مكعبة ، وتبلغ سعته ما يقرب من ربع طن ، والصغير نحو ٥٠ كيلوغراما . ويقوم بصناعة القراقير هذه أشخاص من سكان الجبيل يطلق عليهم اسم « العمّالين » ، وهم يتمتعون بالمهارة والدقة والصبر . ويتألف القرقور من جزئين : القاعدة والقبة . ويبدأ العمل أولا على القاعدة حيث يقوم أحد « العمالين » بعمل حفرة كالأدحية ، ومن ثم يؤتى بلفة السلك « الهَنْدر » حيث تقص الأسلاك الى أطوال معلومة وتبسط على أرض الحفرة وتغطى بالرمل لتثبيتها ، ثم يشرع « العمالون » بربط الأسلاك وتشبيكها . وتحتاج القاعدة التي يبلغ قطرها نحو مترين ونصف المتر الى عمل يوم كامل لانجازها . ثم يبدأ العمل على قبة القرقور الى ارتفاع مترين تقريبا حيث تأخذ من وقت

(٧) صيادو الأسماك .

« العمالين » يوما أو يومين . بعد ذلك يقص جزء من جانب من القبة ليثبت عليه « الفك » وهو باب خاص يدخل معه السمك ولا يسمح له بالخروج منه . كما يعمل في قاعدة القرقور وخاصة الصغير منها فتحة غير ظاهرة «التُغْرَة» لاستخراج السمك منه . ويتطلب القرقور المتوسط الحجم ما زنته عشرين كيلوغراما من الأسلاك لصنعه . ويبيع العمالون القرقور الكبير بجزأيه وبابه بحوالي ١٠٠ ريال . ويقوم « السماكون » بربط الجزأين معا بخيوط من النايلون ثم تثبت على القاعدة أعمدة من القصب « الخطرة » تستورد خصيصا من الخارج ، يزداد بها القرقور وزنا ، كما يوضع لهذا الغرض أيضا حجران أو ثقلان على طرفي القاعدة يساعدان القرقور على الرسوب الى قعر البحر عند انزاله من سطح القارب . ويحمل القارب الكبير عادة ما يقرب من أربعين قرقورا .

أما « الغزول » أي الشباك فتصنع من خيوط النايلون وتستعمل لصيد « الكنعد » في الشتاء ، والأسماك المتواجدة في المياه الضحلة . ويعمد الصيادون الى ربط رضم أو قطع من الرصاص بأطراف الشباك السفلى لترسب الى القعر وربط عوامات مصنوعة من الفلين الأحمر بأطرافها العليا لتطفو على سطح الماء . وكان الصيادون قديما يستعملون كَرَب النخيل بدلا من الفلين الذي غدا يستورد من الخارج مع الشباك .

أما « المساكر » ومفردها « مَسْكَر » فهي أسهل طريقة لصيد الأسماك على الشاطيء ، وهي عبارة عن حواجز من الصخور مقفلة من جهة البحر ، فاذا ما كان المد ، غمرها ماء البحر . وعندما ينحسر عنها الماء وقت الجزر تبقى الأسماك خلف تلك الحواجز ، فيأتي كل صاحب مسكر ويلتقط ما قسم الله له به من خيرات البحر . وتمتد هذه المساكر على طول الشاطيء من الجبيل البحري جنوبا حتى الى ما بعد « جَلْمودة » شمالا ، وهي مسافة لا تقل عن ١٥ كيلومترا .

ويستورد معظم القوارب التي يستخدمها أبناء الجبيل للصيد من البحرين الا أنهم يقومون باصلاحها وصيانتها ، وخاصة طلاء الجزء الأسفل منها بطبقة من النورة « الجص » الممزوج بالودك (دهن يؤخذ من سنام الابل) لوقايتها من طحالب البحر التي تتراكم عليها وتتلفها مع الزمن .

ويدعم صناعة صيد الأسماك في الجبيل معملان لانتاج قوالب الثلج . تبلغ طاقتهما القصوى في فصل الصيف نحو ألفي لوح في اليوم . وحري بالذكر أنه في أواخر عام ١٣٨٨ هبت رياح عاتية انهار على أثرها جانب من الفرضة القديمة التي ترسو عليها قوارب الصيد . الأمر الذي أصبح معه من الصعوبة بمكان تزويد القوارب بالثلج والديزل وخاصة في فصل الشتاء البارد مما جعل كثيرا من صيادي الجبيل يلجأون الى فرضة القطيف . وسيبدأ قريبا باصلاح هذه الفرضة واعدادها فنيا لاستقبال قوارب الصيد . كما تقرر انشاء فرضة تجارية جديدة تبلغ تكاليفها نحو عشرة ملايين ريال ، لتساعد في تخفيف الضغط على ميناء الملك عبد العزيز بالدمام من ناحية ، وتنشيط الحركة التجارية في الجبيل من ناحية أخرى .

المرحلة الأولى من صنع القرقور .

كنوز أثرية مطمورة

تحتضن منطقة الجبيل من الآثار المدفونة والظاهرة ما يحتاج من علماء التاريخ والآثار دراسة موضوعية فاحصة لاماطة اللثام عن كثير من الحقائق التاريخية المتعلقة بها . وقد سبق أن قامت وزارة المعارف السعودية بايفاد بعثة أثرية الى « الدوسَرِيّة » الواقعة على بعد نحو ١٢ كيلومترا الى الجنوب الشرقي من الجبيل ، يحتضنها تل يرتفع نحو ١٨ مترا عن سطح البحر ، وقد جاء في تقرير هذه البعثة أن « الدوسرية » تضم آثارا يعود تاريخها الى العصر الحجري . ومن الأماكن التي تشير الدلائل الظاهرة على أنها كانت عامرة في وقت مضى « الدّفي » ، وهي تقع على بعد نحو ١٥ كيلومترا الى الشمال الغربي من الجبيل ، على تل يبعد أربعة كيلومترات عن ساحل البحر تناثرت فيه قطع من الفخار والخزف الملون المصقول ، وكسف من الزجاج الباهت اللون . ومما يحمل على الظن أن «تل الدفي» قد يحتضن مدينة اسلامية عباسية ، وجود بقايا الأبنية التي لا تزال حجارتها المقصبة تغطي مساحة كبيرة من التل .

وفي طريق العودة من « الدّفي » الى الجبيل ، مررنا « بجلمودة » المحاذية لشاطيء البحر ، والتي تبعد ثمانية كيلومترات الى الشمال الغربي من الجبيل . وفي جلمودة قصر لا تزال أطلاله ظاهرة للعيان . ويقوم في الركن الجنوبي الشرقي من القصر برج للمراقبة . وفي وسط القصر صخرة كبيرة قد يكون لها نصيب في تسمية هذا المكان . فامرؤ القيس يقول في وصف فرسه :

مكرّ مفرّ مقبل مدبر معا
كجلمود صخر حطّه السيل من عل

والقصر مستطيل الشكل يبلغ طوله ٦٠ مترا وعرضه ٤٠ مترا ، وهو مبني من الصخور البحرية . ويخص هذا القصر شيخ آل الصبيح ، وهو فرع من بني خالد حسب ما ذكره أحد كهول الجبيل . ويقصد « جلمود » بعض المشتغلين بصناعة الطوب لجلب الرمل الأحمر الممزوج بالأصداف البحرية الصغيرة لصلاحيته لصنع « الطابوق » .

وفي أثناء العودة مررنا بشجرة اثل ضخمة فارعة الطول على سيف البحر ، يعتبرها أبناء

الجبيل من معالم مدينتهم الأثرية . فقد اتخذتها البحارة منذ القدم « منارا » تهتدى به السفن والقوارب الميممة شطر الجبيل ، وتعرف هذه الشجرة بـ « أثلة السهول » . ولدى مغادرتنا « الأثلة » شاهدنا أمامنا برجا مخروطيا ضخما ، يقوم على رأس طريق الكنهري الآنف الذكر يطلق عليه « برج الطُوَيّة » . ويحيط به أربع آبار « قلبان » مطويّة بالحجارة ، كانت الجبيل تشرب منها ، احداها يقع ازاء الجدار الشرقي من البرج . ومع أن البرج يعود في تاريخه الى أكثر من نصف قرن الا أنه يبدو وكأنه قد شيد قبل زمن قريب ، فلم تبله الأيام ولا العواصف الهوجاء . ويبلغ ارتفاعه نحو عشرة أمتار ومحيطه من الأسفل نحو ٢٤ مترا ومن الأعلى نحو ١٤ مترا. وهو مؤلف من ثلاثة طوابق ، العلوي منها مكشوف ويربط بينها سلم جانبي داخلي من خشب القندل المتين . وكان الطابق الأرضي بمثابة مخزن للذخيرة والمؤن ، ويتخلل الجدار الشرقي من الطابق الثاني فتحة تعلو فوهة البئر مباشرة كانت تستعمل لزعب الماء منها في حال هجوم مفاجيء لا يستطيع معه حماة البرج من الخروج لجلب الماء . أما الجدار الدائري الذي يبلغ سمكه مترا فهو مبني بالحجارة والطين ومكسو من الداخل والخارج بطبقة من الجص . ويتخلل الجدار من جميع جهاته ثقوب مائلة كان الحماة يطلقون منها نيرانهم على المهاجمين . ومن ناحية أخرى ، فان هنالك آثارا تاريخية تحتضنها القرى التابعة للجبيل منها « أبو شريف » ، وهو أحد موارد المياه ، ويوجد فيه خرائب قديمة وكهوف عليها بعض الكتابات والنقوش ، وتنتشر على أرضها القطع الخزفية . كما اكتشف بقرب الجبيل البري تل بارز من الصخور الكلسية عليها بعض النقوش والرسوم والأشكال الهندسية بالاضافة الى أساسات بعض البيوت الأثرية ذات المعالم الواضحة .

الحركة التعليمية

رغم الانحطاط في الحركة العلمية والأدبية الذي ابتليت به هذه المنطقة خلال العهد التركي ، نجد أن أهل الجبيل يقدرون العلم حق تقدير ، ولذا فقد وجدت في الجبيل كتاتيب كثيرة واكبت ازدهار الحركة التجارية فيها في الأزمان الماضية . كما اضطلع بأعباء تحفيظ القرآن وتعليم مبادىء القراءة والكتابة والحساب فيها عدد من المشايخ ، من بينهم الشيخ سعود بن خضير ، والشيخ سليمان الكهلان ، والشيخ محمد السليمان الشريم وبعد أن وطد الملك الراحل عبد العزيز ، طيب الله ثراه ، أركان الحكم في هذه المنطقة ، واستتب الأمن وعم الاستقرار أمر بفتح أول مدرسة فيها عام ١٣٥٧هـ ، أطلق عليها « مدرسة الجبيل الأميرية » ، وكان أول مدير لها الشيخ يعقوب ابن يوسف ، ثم تغير اسمها فيما بعد الى « مدرسة الجبيل الأولى » ، وأخيرا أصبحت تسمى « مدرسة عبد العزيز آل سعود » . وقد تخرج في هذه المدرسة نخبة من أبناء الجبيل واصلوا تحصيلهم الثقافي والعلمي نجد منهم الآن من يحملون مشعل الفكر ولواء النهضة الأدبية في المنطقة الشرقية . وفي عام ١٣٧٥هـ ، افتتحت مدرسة متوسطة بدأت بحوالي ٢٥ طالبا . ومع الاقبال الشديد على التعليم افتتحت الحكومة عام ١٣٨١ « مدرسة فيصل بن عبد العزيز الابتدائية ». ولم تغفل الحكومة تعليم الفتاة في الجبيل فافتتحت فيها عام ١٣٨٣ مدرسة ابتدائية ، ثم معهدا متوسطا عام ١٣٨٦هـ تخرج منه ٢٥ طالبة ، منهن ثماني عشرة يعملن مدرسات في « مدرسة الجبيل الابتدائية للبنات » . وتضم مدارس الجبيل في العام الدراسي الحالي نحو ١٥٠٠ طالب وطالبة . هذا بالاضافة الى عدد كبير من أبناء الجبيل ما زال يواصل تحصيله العلمي في جامعات المملكة وفي الجامعات العربية وفي أوروبا وأمريكا ، ويلمس الزائر مدى اهتمام الجبيليين بالعلم وشغفهم به عندما يلمس تقدم الحركة الأدبية والفكرية فيها . وقديما احتضنت جبيل خليد « عينين » الشاعر الذي كانت له مع ثالوث الهجاء جرير والفرزدق والأخطل مساجلات شعرية رقيقة لم نقف على شيء كثير منها . فخليد هو من عبد القيس من ولد عبد الله بن دارم بن مالك ، نسب الى عينين وهو القائل :

أيها الموقدان شبّا سناها
ان للضيف طارقي وتلادي

وجاء في كتاب « الشعر والشعراء » لابن قتيبة ، أن خليد عينين مر بوال لزياد على بعض كور فارس فسأله فلم يعطه ، وقال له : أنت تدلّ بالشعر ، فاذهب فقل ما شئت ، فقال : أما أنا لا أهجوك ، ولكن أقول ما هو أشد عليك من الهجاء ، فأنشأ يقول :

وكائن عند تيم من بدور
اذا ما حركن تدعو زيادا
دعته دعوة شوقا اليه
وقد شدّت حناجرها صفادا

ونمّى الشعر الى زياد فقال : لبيك يا بدور تيم ، وبعث اليه ، فأخذ منه مائة ألف درهم .

من أبناء الجبيل المعاصرين الشاعر الموهوب عبد الرحمن العبيد الذي يحملنا معه « في موكب الفجر » ليحلق بنا في أجواء شعرية حالمة على أنغام ناعمة ، ينطلق معها صادحا :

أنا في روابي الشعر طير صادح
أهوى من الأنغام لحن طماح
والشعر ينبوع تفجر ، فارتشف
يا قلب ما تهوى من الأقداح

طلاب المدرسة المتوسطة يقومون باعداد الصحف الحائطية تحت اشراف أساتذتهم .

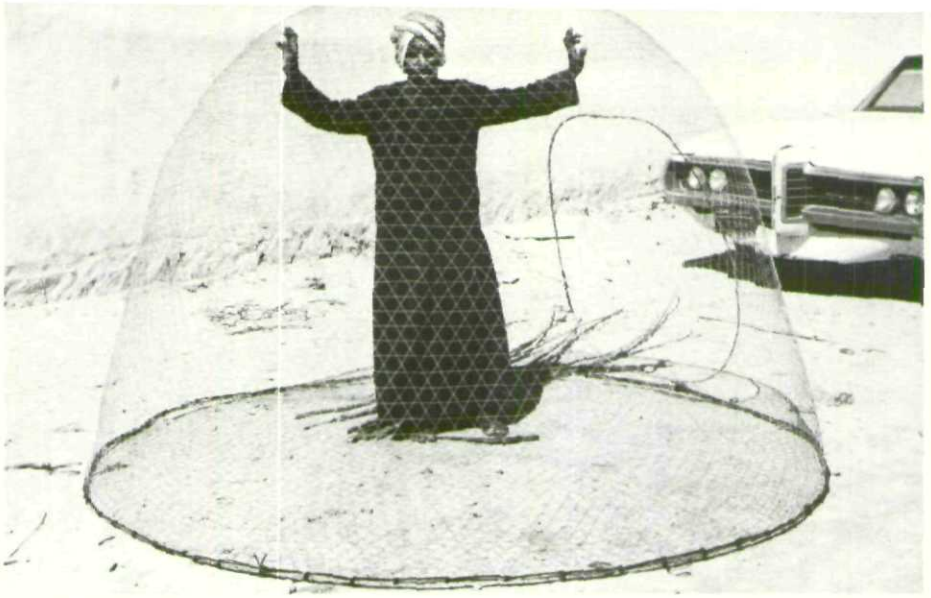

صناعة القراقير في الجبيل تدر على « العمالين » دخلا طيبا ، وهذا أحدهم قد دخل في القرقور مدللا على ضخامته . تصوير : سعيد الغامدي

وتتدفق الألحان من « وحي ثلاثين » ، الشاعر كشلال هادر فيقول :

أيها الشاعر الذي حطم القيد وانطلق
الثلاثون لم تزل صورة منه تأتلق
قد طوينا شراعها لفؤاد به خفق
طي أحلامنا النضار رواء بلا قلق
غير بقيا حزينة من نشيد قد انفتق
باكرته فتونه ورؤاه وما نطق
لذع الشوق صامتا واكتوى فيه واحترق
كشراع مبدد لفه البحر فاصطفق
ضاع مجذافه فأوشك حينا على الغرق
انه نفحة الوجود ولحن بلا نسق
ونشيد بلا روى وحياة بلا ألق

والشاعر « العبيد » ، المقيم الآن في الدمام ، تشده الى مسقط رأسه الجبيل روابط قوية نجد صداها يتردد في شعره . وليس « العبيد » شاعرا فحسب بل هو بحاثة مدقق وأديب واسع الاطلاع ، نشر أبحاثه ودراساته في الصحف . وصدر له كتاب « الأدب في الخليج العربي » وكتاب « قبيلة العوازم » . ومن مخطوطاته المعدة للطبع « تاريخ شرقي الجزيرة العربية » و « معالم جزيرة العرب الحديثة » . وهو يعكف الآن على اعداد القسم الخاص بالمنطقة الشرقية من « المعجم الجغرافي الحديث للبلاد العربية السعودية » ، وقد أوشك على الانتهاء منه ، وهذا المعجم يعتبر من المصادر التاريخية الجغرافية المهمة .

ومن شعراء الجبيل الشاب « علي محمد العلي » الذي له أشعار جيدة منها قوله :

طير على شجر الأثيلة حاما
عند الصباح يردد الأنغاما
ما زال في خفق الجناح مصفقا
يرنو وينشد والصدى يتسامى
ثم انثنى والشجو يغمر خافقي
أنت الهزار ، وما أظن حماما
هل أنت من بعد الأحبة تشتكي
أم أنت في فرح تود ندامى

وهناك جمهرة من الكتاب والأدباء نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر الشيخ ثاني المنصور ، ومحمد سليمان الشيحة ، وعبد الرحمن البهيجان ، وسعود المرشد العقيلي ، وراشد محمد الخاطر وغيرهم ، والى جانب هؤلاء هناك عدد ممن اشتهروا بالشعر النبطي منهم حسن محمد أبو سلوم ، وماجد محمد الشحيمي ، وخميس ابن سيف الناوي ، وعبد الله بن محمد الخاطر . والشعر النبطي عامة غني الصور ، عذب الألحان ، دقيق المعاني .

الجبيل منتجع هادئ

موقع الجبيل الجميل ، واعتدال جوها ، وبعدها عن منطقة الدمام المكتظة بالسكان الصاخبة الحركة ، يجعل منها منتجعا هادئا ينشده طلاب الراحة والاستمتاع . فيؤمها كثير من أهالي المنطقة ، لا سيما في العطل الأسبوعية وأيام الأعياد للتمتع بهوائها العليل ومناظرها الطبيعية . وتنظم بعض المدارس والمعاهد في المملكة رحلات خاصة لطلابها لزيارة الجبيل للتعرف الى آثارها ومعالمها التاريخية ، ويجـ[illegible] بحري بصخوره الشاهقة أكبر عدد من الزوار ، اذ يقفون عليه عند الغروب لمشاهدة قوارب صيد الأسماك وهي تتهادى على صفحة المياه مثقلة بأحمالها . ومن على قمة الجبيل البحري يحظى المرء بلحظات هانئة قلما تتيحها له الفرص في مكان آخر ، فالبحر بخضرته الداكنة والمدينة المترامية على شطآنه ومن ورائها بساتين النخيل تطوقها بذراعين حانيتين كقلادة من حبات اللؤلؤ على صدر حسناء تنبسط وراءها كثبان رملية ناعمة . ويحرص كل من يزور الجبيل على أن يحظى بأكلة شهية من أسماكها اللذيذة . والأعياد في الجبيل تجتذب أعدادا كبيرة من أبناء المدن المجاورة يتوافدون اليها للمشاركة في عرضة الجبيل الحماسية ولا سيما « المعقودة » حيث تنطلق الحناجر بالأهازيج على نقر الدفوف ودق الطبول . أو يشاركون الجبيليين في رقصة « السامري » وشاعرهم يردد :

وأنا البارحة بالليل مع ضامر السرجوف
إلى أصبحت لاني في غزير الميادين
تكفون قطوني على راعي الشاحوف
بنولي ومعروف أربه يودني
مروا بي على الدمام وأنتم هل المعروف
عسى الله يسمح دربكم يالمحبين

والجبيلي اذا ما جالسته يعجبك فيه ذكاؤه ونشاطه ومرحه وكرم نفسه . ولن يدعك تفلت من أكلتهم الشعبية المعروفة بالبرنيوش « المحمر » التي تتألف من الرز ودبس التمر والسمن البري تكدس فوقها كميات كبيرة من السمك المشوي أو المقلي .

وبلدية الجبيل تعمل كل ما وسعها من جهد لابراز المدينة في المظهر اللائق بها ، فتشق الشوارع وتغرس الأشجار وتنشيء الحدائق والمتنزهات العامة وتنظم الأسواق . وهي ماضية في خطتها لتجميل المدينة بانشاء كورنيش على طول الشاطيء سيبدأ تنفيذه قريبا . وأبناء الجبيل ازاء ذلك التطور ينظرون بعين التفاؤل الى مستقبل مدينتهم مع المشاريع الحيوية التي ستتبنى الدولة تنفيذها هناك .

ونحن اذ نودع الجبيل نردد مع الشاعر منصور علي منصور وصفه لها :

يحيط بها النخيل وقد تعالى
تلوح قطوفه رطبا جنيا
يلطفها نسيم البحر صيفا
وتلبس من لآلئه حليا
أفاض كنوزه فيها وألقى
لها من صيده لحما طريا